المجهودات السياسية والثقافية

لترقية السواد فى الأمم المتمدنة

للأستاذ س . م

أعظم مايحتاج اليه النظام الديمقراطى أن يكون الشعب راقيا قادرا على إدراك مصالحه الحقة يستطيع التمييز بين برامج الأحزاب التى تتولى الحكم، كما يمكنه أن يفطن للزائف والصحيح من الدعايات التى تعج بها منابر الخطباء وصفحات الجرائد وأمواج الأثير. لأن الشعب الذى يعجز عن تقدير مصالحه الحيوية قد ينتهى يوما ما إلى الانقياد إلى دعاية دكتاتورية تقضى على نظمه الدستورية والاجتماعية والاقتصادية وترده إلى الوراء مئات السنين .

زد على هذا أن الرقى العلمى يتسلل إلى مختلف المصالح الانسانية وما دام الشعب يسير على النظام الديمقراطى فانه لايمكن تعميم الاصلاحات العصرية التى تحتاج إلى البصيرة العلمية إلا إذا كان إدراكه يمتد إلى تقدير العلوم العصرية والايمان بفوائدها . لأنه حين يجهل هذه العلوم يعود عقبة فى طرق الاصلاح المختلفة . وليس من شك فى أن الاصلاح سواء فى الصحة أو الهندسة أو الزراعة أو الصناعة يحتاج إلى الفنيين المتخصصين ولكن التنفيذ فى الأمم الديمقراطية يتوقف على رضى الشعب واقتناعه بفائدة هذا الاصلاح .

ومن هنا قيمة التعليم العام الذى يتناول جميع أفراد الشعب شبانا وفتيات ويرتفع بهم سنة بعد أخرى إلى ألوان من الثقافة تنير بصيرتهم الوطنية وتنبه أذهانهم وتجعل كل جيل منهم أرقى من الجيل السابق بمقدار رقى المعارف الانسانية . فقد شرعت أوربا منذ أكثر من مئتى سنة فى تعميم التعليم الابتدائى فلما وثب المجتمع الأوربى وثباته الأخيرة بقوة النهضة الصناعية الآلية إضطرت هذه الأمم إلى أن ترفع أيضا مستواها التعليمى حتى كاد يكون التعليم الثانوى عاما وإلزاميا ومجانيا بين الشبان والفتيات الذين لم يحصل آباؤهم على أكثر من التعليم الابتدائى . وهذه المدارس الثانوية تسمى " مدارس التكملة " . وأحيانا يجد الصبى المنتهى من التعليم الابتدائى نوعا آخر من التعليم الثانوى يتجه به نحو الفنون والصناعات . وهذه المدارس بعضها نهارى وبعضها ليلى ينفسح فيها المجال لتعليم الشاب الذى يتكسب أو الشاب الذى يجد الفراغ الكافى : الأول يلتحق بالأقسام الليلية بعد أن يعود من مصنعه ، والثانى يلتحق بالأقسام النهارية . وبهذه المدارس ارتفع المستوى الثقافى والفنى بين جميع العمال الأوربيين وخاصة فى الأمم الغربية الشمالية وفى الولايات المتحدة الأمريكية . ولذلك لم يعد كبيرا على أحد هؤلاء العمال أن يقرأ الكتاب العلمى وأن يتابع

المناقشة الفنية فى موضوعات مختلفة تمس حياته الاجتماعية أومصالحه الصناعية أوالوطنية، بل لقد عمدت الجامعات الكبرى مثل جامعة أكسفورد ، إلى إيجاد الأقسام الخاصة للعمال يلتحقون بها و يعيشون فى المنطقة الجامعيـة بالنظام الداخلى و ينالون منهـا الثقافة العـالية فى التاريخ والآداب والفلسفة أو العلوم العصرية مثل الكيمياء أو البيولوجيا أو الفيزياء . وقد حبست الأوقاف من الأثرياء على تعليم هؤلاء العمال لكى ينالوا قسطا من الثقافة الجامعية بالمجـان أو بأقل من المصروفات . ومعظم المنتفعين من العمال بهذه الميزات هم أولئك الذين يتولون إدارة النقابات وشركات التعاون وأندية العمال ونحو ذلك من الاشراف على حركات العمال — هذا الاشراف الذى يحتاج إلى صفات خاصـــة فى المتزعم سواء أكان رئيسا أم سكرتيرا أم مستشارا .

ومن المجهودات الثقافية التى يقصد منها إلى التيسير على الفقراء لكى ينالوا أقصى ما فى مستطاعهم من التحصيل العلمى أوالأدبى ، إجازة الانتساب فى كثير من الجامعات وخاصة تلك الجامعات الأمريكية التى تأخذ بالأساليب العصرية المبتكرة فى التعليم والتثقيف . فان العـامل الذى يضطر إلى أن يقضى حياته فى قرية نائية يستطيع أن يحصل على شهادة جامعية بالمراسلة وهو مقيم فى قريته حيث يتكسب لعيشه . وقد يكون غرضه نيل الشهادة الجامعية وهو الأقل ، أو محض الثقافة العامة وهو الأكثر ، بل ان بعض الجامعات تعمد إلى نوع من الاستعمار فتبعث بفروعها الى الأحياء النائيـة ، وتقوم بدعاية واسعة لاجتذاب الشبان والفتيات لكى يدرسوا و يحققوا الرقى المنشود حتى يصبح ذكاء الأمة وقد عبىء للاصلاح ، فلا يجد دعاته مقاومة أو عقبة فى تحقيقه . وقد يدهش القارئ إذا عرف أن بعض هذه الجامعات يجيز للمسجونين الذين يقضون أيام العقوبة بل سنيها فى السجن أن ينتسبوا إلى الجامعة ، وأن يدرسوا بالمراسلة حتى إذا خرجوا من السجن لم يعطوا "كشف سوابق" يؤخرهم و يعترهم و يعطل عليهم وسائل التكسب والعيش ، بل هم يعطون شهادة جامعية تشهد لهم بالمهارة والحذق فى علم أو فن معين يستطيعون أن يجدوا بهما العيش الراقى والكسب الوافر الذين لم يكونوا ليحصلوا عليهما قبل دخولهم فى هذا السجن . وهذا من مبتكرات المجهودات الثقافية التى تبذلها الولايات المتحدة لاصلاح الفاسد من الأخلاق بالتعليم لا بالعقوبة .

وقد قرأنا من قريب سيرة أحد هؤلاء المتعلمين فى السجن وهو جان ثالتين الذى تعـلم فى الصحافة ونال الشهادة الجامعية فيه من جامعـة كالفورنيا حين كان فى أحد سجون هـذه الولاية . فلما أفرج عنه كان خريج جامعة بدلا من أن يكون خريج سجن ، وأصبح صحفيا ومؤلفا له مقامه الاجتماعى بعد أن كان مجرما يطارد للشبهة أو للتهمة .

ولا تكاد تخلو جامعة أمريكية من " قسم لخدمة عامة " أى تلك القاعة الرحبة التى يجتمع فيها أفراد الشعب لكى تلقى عليهم المحاضرات فى شئون مختلفة كما نرى فى مثال الجامعة الأمريكية بالقاهرة فى قاعة بودرت .

وهناك ابتكار آخر تختص به الأمم الاسكندناوية أى النرويج والسويد وفنلند والدنمركا هو "مدارس الشعب". وهى هذه المدارس التى يعيش فيها الطلبة من الفلاحين والعمال على النظام الداخلى، فترة تتراوح بين أربعة أشهر وستة أشهر كل عام. لا يقصد منها تعليم الطلبة فنا معينا أو صناعة خاصة لكى يزيدوا بها كسبهم؛ وإنما هم يتعلمون ويدرسون دراسات عالية مثل الفلسفة والاجتماع والآداب والبيولوجيا والسيكولوجيا وغايتهم الرقى والاستنارة، حتى إذا عادوا إلى مصانعهم أو مزارعهم استطاعوا أن يحيوا الحياة الراقية على مستوى رفيع فى المنزل والشارع والنادى والمكتب والمصنع والمزرعة يقرأون أمتع الكتب ويتخيرون أفضل الجرائد والمجلات ويلبون اللهو البرىء السامى. وهذه المدارس جميعها حرة ينشئها من يريد ويعلم فيها أساتذة مختلفون فى المذاهب الاجتماعية أو السياسية أو الفلسفية، وهم وحدهم الذين يقررون نظام التعليم ويتخيرون المواد دون أى تدخل من الحكومة التى ليس لها إلا أن تقدم الاعانة المالية لهذه المدارس حتى تستطيع الأخذ بالنظام الداخلى للطلبة دون أن ترهق بتكاليف إيوائهم وطعامهم. وليس فى هذه المدارس امتحان، لأن جميع الطلبة يأتون إليها متطوعين، وهم يدرسون مختارين ثم يعودون إلى مصانعهم أو مزارعهم للعمل والتكسب، ويعزى الرقى الزراعى القائم على نظام التعاون فى الدنمركا — هذا الرقى الذى ليس له شبيه فى العالم — إلى هذه المدارس، لأن الدنمركا كانت أولى الأمم الشمالية التى أخذت بنظامها .

وهذا الكفاح الثقافى نجد منه مثالا آخر فى إيصال الكتاب إلى المنزل . فإن المكتبة العامة المجانية فى المدينة الصغيرة أو الكبيرة تجد أن زائريها تتكون كثرتهم فى أغلب الأحيان من سكان الحى الذى يحيط بالمكتبة أو يقرب منها. أما سائر السكان فيجدون أن بعد المسافة بينهم وبين المكتبة يبعدهم عنها مادة ومعنى فلا يغشونها للقراءة ولا يستعيرون منها .

ولذلك تعمد المكتبة إلى اقتناء السيارات الكبيرة وتكدسها بآلاف المجلدات ثم ترسلها إلى المنازل فى هذه الأحياء أو إلى القرى النائية. حتى إذا وصلت السيارة نزل وكيل المكتبة وأخرى من حوله من السكان بالقراءة يعرض عليهم هذا الكتاب أو ذاك ويشرح موضوعه ويوضح مزاياه ويعيرهم الكتب لشهر أو شهرين يعود بعدهما لكى يستبدل بها كتبا أخرى . وهذه المكتبة الجوالة قد أصبحت من المؤسسات الاجتماعية التى لا تخلو منها قرية فى الولايات المتحدة وفى بعض الأقطار الأوربية .

على أن وسائل الثقافة لم تقتصر فى أيامنا على المدرسة والجامعة والمكتبة. فان الراديو فون والسينماتوغراف والجرائد والمجلات قد أصبحت هى الأخرى تنشر الثقافة وتنير الأذهان .

والقارئ الذى يشترى عدد الأحد من جريدة "النيويورك تيمس" الذى يبلغ أكثر من مائة صفحة لو أنها رتبت فى قطع الكتاب المتوسط لبلغت ٦٠٠ صفحة يجد فيها إلى جنب الأخبار العالمية ألوانا من العلوم والآداب، بل الفلسفات التى تكفيه قراءة لأسبوع كامل أو أكثر. والجريدة الراقية تجعل للخبر قيمة ثقافية لأنها تختار من الأخبار ما له خطورة وتوجيه فى السياسة أو الاجتماع. وفرق عظيم بين خبر تنشره مجلة مختلفة عن الطعام الذى تأكله ممثلة وبين خبر تنشره جريدة أو مجلة راقية عن مشروع جديد للإصلاح فى إحدى المدن أو أحد الأقطار. ثم هناك القصص والمقالات الاقتصادية والعلمية والأدبية التى تجعل القارئ على دراية بشأن التطور العالمى والتاريخ الجارى. ونحن فى مصر لا نرى من المجلات الانجليزية سوى ما يسف منها ويسخف. (والعرض على قدر الطلب) ولكننا نجهل تلك المجلات الأخرى التى تصدرها جامعات أمريكا أو التى تصدر عن لندن وتتناول بحث الموضوعات التى تمس الرقى البشرى بل تعينه وتوجهه. ولو شئنا ذكر الأسماء لذكرنا العشر والعشرين من هذه المجلات.

ثم هناك الراديوفون الذى تستأثر الدعاية بمعظم وقته، ولكن العلوم والآداب تجد مع ذلك الفرصة للتسلل اليه وإثارة المستمعين بالحسن المفيد من الثقافة العامة. ويمكن القارئ المصرى الذى يعرف الانجليزية أن يدرك مدى الثقافة وعمق المعارف التى تلقيها محطة الاذاعة البريطانية فى لندن مما ينشر أحيانا من إذاعاتها فى مجلتها التى تسمى "ذى لسنر" التى تباع أحيانا فانهم هناك يرمون الى تنوير الشعب وينظرون إلى الثقافة باعتبار أنها كفاح يراد منه التربية والترقيـة.

بل كذلك السينماتوغراف الذى لا تستغنى عنه مدرسة أو جامعة، بل كلتاهما تستخدمه فى القاهرة، فى ايضاح المعارف العلمية والجغرافية والتاريخية بما يجعل فهم العلوم ميسرا موضحا للطلبة ولغير الطلبة.

وخلاصة القول إن الأمم المتمدنة تجاهد وتكافح وتستعمل سلاح الالزام والعقوبة أحيانا وسلاح الإغراء والترغيب أحيانا أخرى لكى ترقى شعوبها وتنيرها وتعلمها وتجعلها كفؤا للنظام الديموقراطى الذى يجعل كل شعب ولى أمر نفسه وعلى دراية بشؤونه ومصالحه. وولاية الأمر تحتاج قبل كل شىء الى الفهم والمعرفة، فهل نحن معتبرون؟

س . م